التطور الديني في الهوية الثقافية الجزائرية

يعد الدين عاملا رئيسيا في الحركية التاريخية للأمة الجزائرية عبر تاريخها الطويل، ويلعب دورا إيجابيا في حالة الإعتزاز بالإنتماء للأمة، فقد كان الجزائري في الماضي السحيق وثنيا مثل أغلب الشعوب، لكن يختلف في وثنيته ما بين المتأثر بعبادة آلهة الفنقيين أو المصريين أو الإغريق، وعندما ظهرت اليهودية أعتنق البعض القليل من الجزائريين الديانة اليهودية بصفتها ديانة أرقى وسماوية في تلك الفترة أي قبل مجيء سيدنا عيسى عليه السلام ثم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ويقول البعض أن الديانة اليهودية في الجزائر هي نتاج هجرة بعض اليهود من فلسطين بعد تشتت اليهود في الأرض، كما نجد بعض اليهود هربوا من الأندلس مع المسلمين بعد عام 1492 .

وعندما ظهرت المسيحية على يد سيدنا عيسى عليه السلام اعتنق الكثير من الجزائريين خاصة والأمازيغ عامة هذه الديانة الجديدة، ويقول بعض المؤرخين أن إنتقالها إلى بلاد المغرب قد تم بواسطة بعض المجندين الأمازيغ في الجيش الروماني الذين كانوا في فلسطين، لكن ما يلاحظ أنه بمجرد أن تبنى الرومان الديانة المسيحية في عهد الأمبرطور قنسطنطين، ومزجوها بالطقوس الأمبرطورية الرومانية وإنتاج مذهب مسيحي مزيج بالثقافة الرومانية -الأغريقية، وهي الموجودة في أوروبا حتى تبنى الأمازيغ مذهبا خاصا بهم هو المذهب الدوناتي نسبة إلى مؤسسه دونات، وهو نوع من الرفض للسيطرة الرو مانية على المستوى الثقافي والديني والسياسي، وقد كانت وراء ثورات ضد الإستعمار الروماني، وهو نوع من الربط بين الوطنية والدين، ويعد هذا المذهب قريبا من المسيحية الحقة التي جاء بها سيدنا عيسى عليه السلام، وهناك فرضية تقول أن إنتشار هذا المذهب الدوناتي عند الأمازيغ هو إحدى العوامل وراء سرعة إعتناق الأمازيغ للإسلام بسبب التقارب بين هذا المذهب والإسلام كما جاء به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

لكن بسبب المشكلة والظاهرة المرتبطة بالجزائريين فإن رغم تحرر البعض منهم من التبعية الثقافية لروما وهم الدوناتيون والوثنيين الذين كانوا وراء الثورة التي قادها فرموس ضد الرومان إلا أن البعض منهم بقي مواليا لروما على أساس مذهبي ، وهو ما يمثله القديس أوغسطين ، وقد عرفت بلاد المغرب عموما والجزائر خصوصا فتنة دينية على أساس مسيحي بين موالين للجزائر فقط وموالين لروما على الصعيد الديني والثقافي.

وعندما ظهر الإسلام أقبل عليه أجدادنا الأمازيغ، وي تبين ذلك من ذهاب وفد منهم إلى سيدنا عمر بن الخطاب لمعرفة الدين الجديد، ولم يتردد الجزائريون في إعتناق الإسلام 100بالمئة تقريبا كما فسرنا ذلك في محاضرة سابقة ، لكن ليس ذلك معناه الوقوع تحت سيطرة الأمويين أو العباسيين، وتجلى معارضتهم للخلافة الأموية في إعتناقهم المذهب الإباضي والصفري المعارض للأمويين في المشرق ، وهو نوع

من رفض السيطرة، وهي ظاهرة تشبه نفس ظاهرة الدوناتية مع المسيحية ، ولم يكتف الجزائريون بذلك بل أسسوا أول دولة إسلامية مستقلة عن الخلافة في المشرق ، وهي الدولة الرستمية، وهو ما يل على مدى حرص الأمة الجزائرية على إستقلاليتها.

كما عرف الجزائريون المذهب الشيعي الفاطمي ، وأسسوا الدولة الفاطمية في الجزائر، والتي وحدت البلاد المغاربية كلها، وقد عرفت هذه الفترة صراعا بين المذهبين الشيعي الفاطمي والإباضي، لكن بمجرد ما أنتقلت الخلافة الفاطمية إلى القاهرة، ومعهم جيش قبائل كتامة الأمازيغية الذين أسسوا جامع الأزهر ومدينة القاهرة، وحاولوا جعل الجزائر مجرد ولاية تابعة لهم حتى ثاروا وأنفصلوا عنها بالرغم من أن مقيمو هذه الدولة في القاهرة هم أمازيغ مثلهم، ويبدو أنها طبيعة الجزائري الذي يرفض التبعية و يصر على الإستقلالية كما سبق أن أشرنا، فبموجب هذه الإستقلالية تخلوا عن المذهب الشيعي ليدخلوا في عالم السنة كنوع من تمرد على الفاطميين الشيعية في القاهرة، لكن بقي نوع من التأثير الفاطمي إلى حد اليوم في الجزائر والبلاد المغاربية، كما ظ هرت دول جزائرية بعد الخلافة الفاطمية على المذهب السني، ومنها الحمادية والزيرية والزيانية، بالإضافة إلى ظهور الدول المرابطية والموحدية التي جمعت هذا التجمع السكاني الطبيعي المسمى ببلاد المغرب، وهي ظاهرة عرفتها بلادنا المغاربية بين التفكك إلى دول ثم التوحد في دولة واحدة ، فمنذ هذه الفترة ساد المذهب المالكي بقوة إلى جانب المذهب الإباضي، كما أتى العثمانيون بالمذهب الحنفي الذي أندثر اليوم.

لكن تميزت الممارسة الدينية المغاربية عامة والجزائرية خاصة بخصوصياتها حتى سمي بالإسلام المغاربي تارة والجزائري خاصة، وهو فيه نوع من الخليط بين الإسلام وبعض الطقوس التي كانت موجودة لدى الأمازيغ قبل الإسلام، وتنتشر هذه الممارسات بقوة في الأرياف عكس المدن ، كما كان للطرق الصوفية تأثير كبير في الممارسة الدينية الجزائرية، خاصة في العهد العثماني.

ولو عدنا لدور الدين الإسلامي في مقاومة الإستعمار الفرنسي فنجد أن هذا الإسلام المغاربي أو الجزائري هو الذي قاد الجهاد ضد المستعمر في القرن التاسع عشر بواسطة هذه الطرق الصوفية، وحتى الإتجاه الإستقلالي كان يغلب عليه هذا الإسلام المغاربي كما هو بارز عند أغلب أبناء الثورة المسلحة.

لكن علينا أن نسجل أنه كما للدين الإسلامي دوره الإيجابي في عملية البناء الحضاري والمقاومة وتمتين وحدة الأمة بصفته هو إسمنتها وقاعدة مثلثها الذهبي المتكمثل في أضلاعه الثلاث افسلام والعربية والأمازيغية ، إلا أن إستغلال الدين لأغراض سلطوية كان له الدور الكارثي في تارخ أمتنا الجزائرية، وعاد ة ما كان ذلك سببا في البقاء في الجمود بفعل ضرب إستقرار الأمة بإسم الدين وسقوط الدول واحدة تلو الأخرى بدل إستمرارها لمدة طويلة ، وتعطى لها الفرصة لتمتين دولة-الأمة كما يوضح ذلك بن خلدون بشكل جلي في مقدمته عند تناوله نشوء وتطور الدول في البلاد المغاربية.